الانتاج الرمزي عند بيار بورديو

د. قويدر سيكوك أ. مبروك بوطقوقة

احتل بورديو مكانة متميزة على المستوى العالمي كباحث أصيل ومثقف ملتزم ومناضل اجتماعي وسياسي ومدافع شرس عن المحرومين والمقهورين في هذا العالم، مستخدما في سبيل تحقيق أهدافه ترسانة من المفاهيم العلمية الجديدة والأدوات المنهجية المستحدثة كاسرا الحدود الابستيمولوجية بين مختلف فروع المعرفة فأسس بالفلسفة واستعان بالإنثربولوجيا واستفادة من علم النفس ليؤسس لمرحلة جديدة في تاريخ علم الاجتماع خصوصا والعلوم الاجتماعية والإنسانية عموما.

أسس لعلم اجتماع نقدي تجاوز من خلاله وهم الثنائية المفتعلة بين الفعل والبنية متجاوزا الأطروحات الكلاسيكية للآباء المؤسسين لعلم الاجتماع مثل :دوركايم Durkheim وفيبر Weber وماركس Marx من خلال الاستناد إلى أطر مرجعية متعددة كالفلسفة واللسانيات والأنثربولوجيا وعلم النفس.

عاش في قمة انتشار البنيوية دون أن يصبح بنيويا ورفض الاكتفاء بوصف المعطيات الاجتماعية كما عاصر الماركسية دون أن يصبح ماركسيا ورفض أن يتقيد بمحدوديتها وتحجرها. وحاول تأسيس سوسيولوجيا علمية لها لغتها الخاصة بها وقوانينها ومفاهيمها ونظرياتها لذا نجده لا يتردد في استخدام كل الأدوات المنهجية الممكنة لتحويل الخطاب السوسيولوجي إلى خطاب علمي ممنهج رافضا وناقدا لمجموعة النزعات المنتشرة كثيرا آنذاك بين علماء الاجتماع مثل النزعة الاقتصادية الماركسية التي تفسر كل شيء بالعودة إلى الاقتصاد وكذا النزعة الوصفية البنيوية التي تكتفي بملاحظة الوقائع الاجتماعية دون تفسير وبطرح طريقا جديدا يمزج بين النظرية والعمل الإمبريقي للوصول إلى التفسير العلمي بعيدا عن الشطحات النظرية من جهة وعن السطحية التجريبية من جهة ثانية وهو ما عبر عنه في مقولته الشهيرة : "النظرية دون بحث امبريقي خواء ، والبحث الإمبريقي دون نظرية هراء" والتي تداولها وتبناها من بعده عديد المفكرين و العلماء ،فأسس لطرح نظري جريء خلاصته السعي لفهم الظاهرة الاجتماعية من خلال تحديد بنياتها من جهة وتحليل العلاقات التي تحكمها وتعمل وفقها من جهة ثانية.

طور بورديو عددا من المفاهيم التي لا غنى عنها لتحليل العلاقات المعقدة في الفضاء الاجتماعي مثل "إعادة الانتاج" "الحقل" "رأس المال الرمزي" "العنف الرمزي "و"السيطرة الرمزية " . ومن خلال التمعن في هذه المفاهيم نرى أن مفهوم الرمز يحتل مكانة محورية في فكر بيار بورديو باعتباره مفهوما سوسيولوجيا أساسيا وضروريا في المقاربة الجادة والعلمية لمختلف وقائع العالم الاجتماعي.

والرمز في اللغة هو "تصويت خفي باللسان كالهمس" وهو ما أشرت إليه مما يبان له بلفظ الإنسان كما يعرفه الفلاسفة "هو حيوان خالق للرموز" (إرنست كاسبرر) وحياة الإنسان هي

محيط متشابك من الرمزية التي يتجاوزها الرمز رغم بنيته المادية المحسوسة دالا على معاني أخرى أوسع من عالم الرمز مثل اللغة كالفنون والأساطير والأحلام وعليه يصبح للرمز حمولة دلالية و مفهوماتية تنبع من تأمله والانفعال به.

وما يهمنا في الرمز هو عملية التركيب التي قام بها بورديو من خلال تلقيح مفاهيم قديمة كالعنف والرأسمال بالرمز لإنتاج مجموعة جديدة من المفاهيم المركبة المستحدثة تدخل ضمن محاولة بورديو لإنتاج أدوات سوسيولوجية تصلح لمقاربة الوقائع الاجتماعية في المجتمع المعاصر المتميز بالتعقيد الشديد وتداخل تأثير وتصارع المصالح وتوراي العلاقات واختفائها.

وسمحت لفظة "الرمز" بتغيير المعاني الأصلية للمصطلحات التي أضيفت إليها فتخلى "رأس المال" عن صبغته الماركسية وتخلص العنف من إيحاءاته التدميرية وصارت المهيمنة مرتبطة بكل العلاقات الاجتماعية مما يؤشر على الإضافة القيمة التي قام بها بورديو.

وللإحاطة بشكل أفضل بإضافات بورديو الرمزية سنلقى نظرة سريعة على أهم المصطلحات ذات العلاقة بالرمز :

الرأسمال الرمزي

استعار بورديو مصطلح "رأس المال" من ماركس في نظريته "المادية التاريخية " باعتباره محركا للتاريخ الإنساني كمعطى مادي ،وأساسا تبنى عليه كل الرؤى المعرفية كمصطلح. لكنه قام بتحريره من الرؤية الاقتصادية "المتطرفة" فلم يقتصر توظيفه بالمعنى الرأسمالي لتراكم الأموال والمواد والأدوات اللازمة للنشاط الاقتصادي بل أصبح عند بورديو يدل على كل ما يمتلكه الفاعل ضمن حقل ما من موارد اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية بما يسمح له بحيازة مكانة معينة ضمن هذا الحقل وبالتالي تحسين وضعه الاجتماعي والحفاظ عليه.

يشمل الرأسمال الاقتصادي كل الموارد المادية التي يمتلكها الفرد أو يكتسبها سواء عن طريق وراثتها أو ربحها، ويشكل عنصرا مهما في الحياة الاجتماعية من خلال تحديد التموضع الكلاسيكي للأغنياء مقابل الفقراء وبالتالي خلخلة علاقات القوة المسيطرة لصالح الفريق الأول.

أما الرأسمال الاجتماعي فهو "مجموع العلاقات والاتصالات والمعارف والصداقات التي تعطي للفاعل تقريبا "سماكة" اجتماعية وبالتالي فهو امتلاك شبكة دائمة لعلاقات مؤسسة من معارف متداخلة من خلال إستراتيجية استثمار اجتماعي يقوم به الفاعل، بهدف جلب منافع أو درء مفاسد وذلك عبر إجراءات مؤسسية كالحفلات والمآتم والنشاطات الرياضية. وفي الأخير لابد للفاعل الاجتماعي من رأسمال ثقافي يتكون:

أولا: من المناهل الثقافية التي يتلقى منها الفرد ثقافته الأصلية كالعادات والتقاليد والفن والدين وغيرها ومضافا إليها الإنجازات الفكرية التي يحوزها ضمن النظام التعليمي كالشهادات والمراتب العلمية.

ثانيا: من شكل مادي للثقافة ممثلا في الكتب والآثار الفنية والأدوات الرقمية وهي جميعا تهدف إلى حفظ وتخزين العناصر الثقافية.

ثالثا من مجموعة الممارسات الثقافية مثل زيارة المتاحف وحضور الندوات. ويتم إنتاج الرأسمال الثقافي وتوزيعه واستهلاكه في مجال خاص به وهو الحقل الثقافي بمؤسساته الخاصة مثل

المدارس والجامعات والجمعيات العلمية والدوريات والمطابع.

لكن الإبداع الحقيقي لبورديو يتجلى في مصطلح "الرأسمال الرمزي" الذي هو ميزة أي نوع من رأس المال (اقتصادي، اجتماعي، ثقافي) يمتلك قيمة استثنائية بحيث يكون معترفا به من قبل الفاعلين الاجتماعيين ويلقى منهم إقرارا واعترافا بقيمته المميزة وبالتالي فهو نتاج تغير وجه علاقة قوة على صلة مع المعني "[1] وكل أنواع الرأسمال تسعى بدرجات متفاوتة إلى الاشتغال كرأسمال رمزي.

ويؤكد بورديو أن الرأسمال الرمزي يتأسس على القبول أو الاعتراف أو الاعتقاد بقوة أو سلطة من يملك مزايا أكثر، ومن هنا فإنه يحوز نوعا من الشرعية تسمح له بالتحكم في أشكال العلاقات ويرتكز الرأسمال الرمزي على الذيوع والاستحسان ويرتبط بالهيبة والشرف ويتطلب جهدا متواصلا من أجل الحفاظ على العلاقات التي تؤدي إلى الاستثمار المادي والرمزي له.

ويظهر الدور الفعلي للرأسمال الرمزي في لحظات الصراع على السلطة داخل الحقل من أجل حيازة المنافع وتبوء المواقع حيث يمنح الطبقات المهيمنة على إعادة إنتاج نفسها من خلال ممارسة العنف الرمزي على الطبقات التابعة.

- **السلطة الرمزية**

تمرد بورديو على المفهوم التقليدي الضيق للسلطة فهو يرى أنها نظام معقد يتواجد في كل العلاقات التي تشتغل داخليا من خلال آليات دقيقة وفعالة تتحكم في البنية العامة للنظام فيقول: "إن السلطة ليس شيئا متمو ضعا في مكان ما ،إنما هي عبارة عن نظام من العلاقات المتشابكة ونجد أن كل بنية العالم الاجتماعي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار من أجل فهم آليات السيطرة " [2] وتمتاز السلطة الرمزية بخلوها من مظاهر القوة (المال، السلاح)و الإكراه. ومن هنا فالسلطة الرمزية هي سلطة تبدو مقبولة بل طبيعية للمسيطر عليهم في مقارنة غريبة.

ولفهم أعمق لهذه السلطة يحاول بورديو الإجابة على سؤالين أساسيين:

- من أين تستمد السلطة الرمزية مشروعيتها؟
- كيف تستطيع أن تتوارى ولا تظهر للعيان بادئ الأمر؟

يرى بورديو أن السلطة الرمزية تستمد مشروعيتها من طبيعة النظام الاجتماعي نفسه فهو لا يفرض نفسه على أجساد ميتة ،إنه مدين في جزء جوهري من قوته إلى الشرعية التي يكسبها جراء انخراط الفاعلين الاجتماعيين في التصنيفات التي تستبعدهم."[3]

فالنظام الاجتماعي من خلال سعيه الدائم لتأبيد نفسه وإعادة إنتاج ذات العلاقات التي تضمن سيرورته ،إنما يستعين في ذلك بعلاقات السيطرة والامتياز عبر مجموعة من الطقوس والاستراتيجيات التي تخفي منطق السيطرة ونظام الامتياز بقدر ما يقدم نفسه عبر منظومة من الاعتقادات والعادات الراسخة بوصفه بنية ثابتة وضرورية تمليها الطبيعة البشرية، وتلك هي الخدعة الكبرى :خلع صفة الطبيعي أو السوي أو المشروع على ما هو ثقافي ومؤسساتي"[4]

ويخلص بورديو إلى أن السلطة الرمزية هي في الأصل سلطة تعسفية لكنها مع الوقت تكتسب اعتراف أولئك الخاضعين لها فتتحول إلى سلطة طبيعية ومقبولة ،وهنا تلجأ إلى أسلوب التورية والاختفاء لأنه لا يمكنها أن تحقق أهدافها في

الحفاظ على سيرورتها إلا من خلال التواطؤ الذي تلقاه من طرف الناس المعنيين بها والذين تبدوا لهم هذه الحقيقة وهمية ولا يعترفون بها.

إن السلطة الرمزية هي سلطة لا مرئية ولا يمكن أن تمارس إلا بتواطؤ أولئك الذين يأبون الاعتراف بأنهم يخضعون لها بل ويمارسونها.[5]

ولفهم أعمق لكيفية عمل السلطة الرمزية يقترح بورديو مقاربة تقوم على استعمال تقنيات إجرائية دقيقة من خلال التفكير بصيغة العلاقات أي التفكير على نحو علائقي وجدلي بدل التفكير على نحو بنيوي - ستاتيكي فاستخدم مفاهيم : الحقل ورأس المال لتفكيك آليات وعلاقات وصدامات الفاعلين في سبيل الحصول على هذه السلطة وإعطائها الشرعية وإدامتها. وتوصل إلى مجموعة من التفاسير التي تشرح كيفية عمل حقل السلطة من خلال النقاط التالية:

- المجال الذي يتم فيه الصراع من أجل حيازة السلطة من طرف الفاعلين أو المؤسسات.
- حقل القوى المحددة للنسبة بحالة علاقة القوة بين أشكال من السلطة وأنواع مختلفة من الرأسمال.
- فضاء اللعب يتواجه فيه فاعلون ومؤسسات ذو رأسمال بهدف التموقع في أوضاع مسيطرة داخل حقولهم والاحتفاظ بعلاقة القوة أو تحويلها.
- صراع لإضفاء الشرعية على السيطرة والحفاظ على نمط إعادة الإنتاج المشروع وحالة التوازن في عملية اقتسام السلطة.

العنف الرمزي

يعرف بورديو العنف الرمزي بأنه "عنف ناعم خفي هادئ وهو خفي مجهول من قبل ممارسيه وضحاياه في آن واحد "[6]

العنف هو النتيجة المنطقية والحتمية لطبيعة المجتمع الشمولية التي تقولب جميع الأفراد في نمط واحد يشترك في نفس التصورات والمسلمات التي يتم تلقينها لهم عبر التنشئة الاجتماعية والنظام التربوي والإيديولوجيا ووسائل الاتصال الاجتماعية مما يجعل قبول هذا العنف، بل والتواطؤ الجماعي لتمريره واعتباره أمرا طبيعيا و يسهل تحقيق الغايات التي وضع لها بفعالية أكبر وجهد أقل ومن هنا يمكن الوصول إلى أن العنف الرمزي هو أمر ملازم لكل المجتمعات البشرية دون استثناء.

إن عملية التموقع داخل الحقول المختلفة من طرف الفاعلين من خلال قوة رأسمالهم الرمزي هي المحدد لفئة المسيطرين الذين يمارسون عنفا رمزيا على المسيطر عليهم لكن هذه الممارسة لا يمكن لها أن تتم إلا بتواطؤ وقبول الفئة الثانية بل حتى بتشجعها للفئة الأولى.

وعليه فالعنف الرمزي هو في جوهره عملية تطبيع وتطويع للطرف الأضعف في العلاقة من خلال عملية التشبع بالأنساق الرمزية التي يعيشون ضمنها في صورة حتميات وجدانية تحدد استجاباتهم المتعلقة بالمسائل الوجودية كالكون و العالم والحياة في إطار نفسي واجتماعي.

ويرى بورديو أن المسيطر عليهم لا يمكن أن يثوروا ضد السيطرة التي يتجرعونها ،ليس خوفا من العنف الجسدي ولا لأن ظروفهم لا تمنحهم الوسائل بل لأنهم هم أنفسهم يساهمون في هذه السيطرة "بشكل يثير الغرابة "[7] وهو ما يمكن أن نصفه بالاغتراب إذا ما استعرنا هذا المصطلح من الماركسية.

ولأن النظام الاجتماعي لا يمنحهم "الأدوات المعرفية "التي تسمح لهم بإدراك عوامل القوة

والإكـــراه في العلاقـــات الـــتي يخضـــعون لهـــا. وللتوضيح الصورة بشكل أفضل يحاول بورديو تفكيك النظام التربوي ليبين أن المدرسة ما هي إلا أداة للخضوع والامتثال من خلال مساهمتها في ترسيخ النمط الاجتماعي السائد من خلال الفرص النسبية المتاحة لأبناء الطبقات المختلفة للالتحاق بالنظام التعليمي في مختلف مراحله بالإضافة إلى تمايز المدارس واختلافها باختلاف الأصول الطبقية لمنتسبيها. وفي كتابه "الهيمنة الذكوريـــة " يحـــاول بورديـــو تحليـــل العلاقـــات البيئيـــة في مجتمـــع القبائـــل لكشـــف الســـمات الأكثر تخفيا التي تكرس التمييز الرمزي بين ما هو مذكر وما هو مؤنث من خلال وضع الرجل في المركز والمرأة في الهامش اعتمادا على الاختلاف البيولـــوجي الـــذي اتخـــذ كتبريـــر طبيعـــي للاختلاف المبين اجتماعيا بين النوعين ويشكل خاص التقسيم الجنسي للعمل.

إن الهيمنة الذكورية تمثل عند بورديو شكلا راقيا من أشكال العنف الرمزي يظهر علاقات الإنتاج سواءا منها البيولوجية كالإخصاب أو الاقتصادية كالتملك أو الاجتماعية كالوضع الاجتماعي. وهذا نتيجة علاقات الهيمنة التي يتم فرضها على طبقتين مختلفتين من العادات على شكل ثنائية يتم اسقاطها على كل شيء في هذا العمل.

وفي دراسة عن تلاعب التلفزيون بالعقول يعتقد بورديو أنه –التلفزيون- يمارس نوعيا مؤذيا من العنف الرمزي من خلال مجموعة من الآليات المعقدة ويشكل تهديدا كبيرا لكل مجالات الإنتاج الفني بل عند تهديده للمجالات السياسية والاقتصادية.

وخلاصة القول هو أن بيار بورديو لم يخلق المصطلحات التي مكنته وتمكننا الآن من فهم عملية الانتاج الرمزي بل عمل على تأنيس المفاهيم التي جاءت في سياقات ورؤى فلسفية واقتصادية وانتربولوجية ونفسية وإدخالها في الحقل السوسيولوجي من خلال تقنيات إجرائية ضمن مقاربة سوسيولوجية متكاملة ترتكز على التفكير الجدلي والتحليل العلائقي للظواهر الاجتماعية.

د. قويدر سيكوك و أ. مبروك بوطقوقة

جامعة مستغانم

الهوامش:

1- شوفالييه ستيفان و شوفيري كريستيان ، معجم بورديو، ترجمة: الزهرة ابراهيم،النايا للدراسات والنشر والتوزيع دمشق- سوريا 2013. ص 164

2-- مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي(فيلا صوفيا صفدي) بيروت – لبنان مجلة الفكر العربي المعاصر، ع .37

3- معجم بورديو، مرجع سابق ص 178

4- حرب علي ، أصنام النظرية و أطياف الحرية (نقد بورديو وتشومسكي)، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان 2001. ص220

5- بورديو بيار ، الرمز والسلطة، ترجمة: عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الطبعة الثالثة 2007. الدار البيضاء – المغرب، ص 52

6- BOURDIEU.P, Le sens pratique, Editions de Minuit, Paris-France 1980,p ,219

7- معجم بورديو مرجع سابق ص 200

المراجع:

بورديو بيار ، الرمز والسلطة، ترجمة: عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الطبعة الثالثة 2007. الدار البيضاء – المغرب.

بورديو بيار ، الهيمنة الذكورية، ترجمة: سلمان قعفراني، الدار اللبنانية للترجمة، بيروت- لبنان 2009.

شوفالييه ستيفان و شوفيري كريستيان ، معجم بورديو، ترجمة: الزهرة ابراهيم،النايا للدراسات والنشر والتوزيع دمشق- سوريا 2013.

حرب علي ، أصنام النظرية و أطياف الحرية (نقد بورديو وتشومسكي)، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان 2001.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، دار الحديث للنشر والتوزيع مصر 2004.

كاسبر ارنست، مقال عن الانسان، ترجمة: أحمد حمدي محمود، الدار المصرية العامة للكتاب القاهرة- مصر 1994.

مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي(فيلا صوفيا صفدي) بيروت – لبنان

BOURDIEU.P, Le sens pratique, Editions de Minuit, Paris-France 1980